التوجه الصوفي في قصيدة "يا كاشف الداء" للشيخ الحاج مالك سي التواوني (ت.1340هـ/1922م)

Seydi Diamil NIANE

Université Cheikh Anta Diop de Dakar/Sénégal

ملخص:
غالبًا ما عبّر التصوف عن نفسه بالشعر لتدوين مذاهبه العرفانية بالإضافة إلى دروسه في الممارسة الروحية، وذالك منذ قرونه الأولى. ويُعدّ الحاج مالك سي من أبرز رموز الطريقة التجانية في القرن الماضي، وأحد شعراء الصوفية الذين كانت كتاباتهم مركبة رسائلهم وتعاليمهم.
يتناول هذه المقالة إحدى قصائد "الحاج مالك سي"، وبالتحديد "يا كاشف الداء" التي يناجي فيها الله كما يقدم فيها إرشادات روحية لأتباعه. علاوة على ذلك، تُظهر القصيدة مدى تأصل "الحاج مالك سي"، في التراث الصوفي العتيق. ومن أجل استيعاب هذه النزعة الروحانية في القصيدة، فإن منهجي سيتراوح بين علم الإسلاميات التأصيلية (islamologie fondamentale) في دراسة العقائد الصوفية والتحليل الأدبي (analyse littéraire) في طريقة عرض القصيدة.

كلمات مفتاحية: التصوف؛ الشعر؛ الأحوال والمقامات؛ الواحدية؛ النور المحمدي

……

L'orientation soufie dans *Yā kāšif al-dāʾ* d'Elhadji Malick Sy (m.1922)

Résumé
Depuis ses premiers siècles, le soufisme s'est souvent exprimé en poésie pour coucher sur papier ses différentes doctrines mystiques ainsi que ses leçons de pratique spirituelle. Figure incontournable de la Tijāniyya au siècle écoulé, Elhadji Malick Sy fait partie des soufis poètes dont l'écriture est le véhicule des messages et enseignements.
Cet article étudie l'un des poèmes d'Elhadji Malick Sy, à savoir *Yā kāšif al-dāʾ*, dans lequel il dessine une orientation spirituelle aux disciples. L'analyse de ce poème démontre, au-delà de tout, son ancrage dans la tradition soufie. Pour appréhender ce soufisme, la méthodologie sera à cheval entre l'islamologie fondamentale dans l'étude des doctrines soufies et l'analyse littéraire dans la manière de présenter le texte.

Mots-clés : soufisme ; poésie ; états et stations *;* unicité ; lumière muḥammadienne

المقدمة

في أحد مؤلفاته عن الشعر الصوفي، يرى الباحث الفرنسي "إريك جوفروا" (Éric Geoffroy) أن التصوف والشعر تربطهما علاقة وطيدة، حيث يقول:

> « Poésie et mystique partagent un même rapport à l'indicible, une même fulgurance de l'inspiration, une même puissance incantatoire, un même recours aux symboles, à la transmutation du sens et à l'ambiguïté originelle du langage. L'une et l'autre ouvrent la possibilité d'une perception globale et immédiate des "réalités spirituelles"».

> " يتقاسم الشعر والتصوف نفس العلاقة مع ما لا يمكن التعبير عنه، كما يتقاسمان نفس الإلهام المبهر، ونفس القوة التعويذية، ونفس اللجوء إلى الرموز، وإلى تحويل المعنى، وإلى الغموض الأصلي للّغة. فكلاهما يفتح إمكانية الإدراك العالمي والفوري للحقائق الروحية" (Geoffroy, 2014, p.20).

لذا فإن الشعر، من وجهة نظره، هو أحد أفضل الطرق لوصف التصوف وحقائق الروح. فإن التصوف مثل الشعر، يستخدم لغة غالباً ما تكون مشفرة وغير مفهومة لدى عامة الناس. وهذا ما يفسر أن عدداً كبيراً من المتصوفة، منذ نشأة التصوف إلى يومنا هذا، شعراء وأصحاب قصائد عديدة، ألفّوا في التربية والمقامات والأحوال الروحية وعلم الميتافيزيقا.

ينتمي "الحاج مالك سي" التِّوَاوُنِيُّ (ت.1340هـ/1922م) المولود في حدود منتصف القرن التاسع عشر الميلادي في قرية "غايا" في شمال "السنغال"، إلى تلك الفئة من المتصوفة الذين تتجلى أعمالهم الرئيسية، التعليمية والصوفية على حد سواء، في الشعر. إن التحليل المنهجي لعمله الشعري هو وحده الذي سيمكن الباحث من فهم بعده الصوفي وسعة اطلاعه[1].

يهدف هذا البحث إلى تحليل البُعد الصوفي في قصيدة "الحاج مالك سي" التي لم يسبق دراستها على حد علمي، وهي قصيدته الشهيرة "يا كاشف الداء". إضافة إلى استخدام المنهج الأدبي

[1] حدود هذه المقالة لا تسمح لي بتقديم المؤلف بشكل شامل. للاطلاع على لمحة عامة عن حياة وأعمال الحاج مالك سي، يمكن للقراء الرجوع إلى: (Robinson, 2000 ; Mbaye, 2003 ; Bousbina, 1997 ; Marone, 1970 ; Niane, 2018 ; Fall, 2024).

(littéraire)، سنقوم بتوظيف الأدوات التحليلية لعلم الإسلاميات (islamologie) لربط القصيدة بنصوص صوفية كلاسيكية مختلفة بهدف إظهار جذور الحاج مالك سي في هذا التيار الإسلامي. فبعيدًا عن مجرد التحليل الوصفي البسيط إذا، سوف يكون التركيز على مختلف المواضيع التي تتناولها القصيدة ذات الصلة بالتصوف. وتتراوح هذه النقاط من توحيد الله إلى مختلف الأحوال والمقامات الصوفية، بالإضافة إلى مسألة النور المحمدي. سيتم التطرق إلى هذه المسائل بعد تقديم موجز للقصيدة.

1. التعريف بالقصيدة

لسوء الحظ، كما هو الحال مع العديد من قصائد الحاج مالك سي، لا نعرف تاريخ ولا ظروف تأليف "يا كاشف الداء". كل ما يمكن القول هو أنها قصيدة رائية من بحر البسيط، تتكون من 27 بيتاً. يرد البيت الأول والأخيران منها كالتالي:

يـا كـاشــف الـداء والأســوا وأضــرار مـفـيـض أبـحـر أنـوار وأســرار

(سي، 2021، ج.1، ص.70)

****

أزكـى صــلاة وتســليم عـلـى قـمـر من نـوره نـيـل مـا نـلـنـا من أنوار

والآل والصــحـب أقمـار العفـاة ومن ســبيلـهم ســلكوا ربي من أبرار

(المرجع نفسه، ص.72)

وهي إحدى القصائد التي يعبّر فيها "الحاج مالك سي" عن نفسه كصوفي، وليس بصفته معلماً فقط. وبالتالي، فهي ليست تعليمية مثل قصيدته "خلاص الذهب" في السيرة النبوية، أو "قنطرة المريد" في التعلّم والتعليم أو "الكوكب المنير" في الميراث. "يا كاشف الداء" واحد من مجموعة نصوص يكشف فيها "الحاج مالك سي" عن نفسه كصوفي ميتافيزيقي باحث عن الله وفي حوار مع الرب. وتندرج قصائده "وسيلة المنى في نظم أسماء الله الحسنى"، المشهورة باسم "التيسير"، و"وسيلة المتقربين إلى حضرة المتين"، المعروفة بـ"فلا بد من شكوى"، و"حروف صلاة الفاتح" من نفس مجموعة القصائد. وتتناول القصيدة في أبياتها السبعة والعشرين عدداً من الموضوعات الصوفية، بدءاً بالواحدية إلى النبوة بواسطة النور المحمدي، مروراً بعدد من الأحوال والمقامات الصوفية.

وسيسلط تحليل هذه النقاط الضوء على جانب مهم من جوانب تصوف "الحاج مالك سي" الذي أهمله عدد من المؤلفين، مثل المؤرخ "ديفيد روبنسون" (David Robinson)[1] والبروفيسور "الحاج روحان امباي" الذي لم يتردد في كتابة ما يلي:

> « Il serait peut-être permis d'avancer, jusqu'à preuve établissant le contraire, qu'El Haji Malick Sy […] n'apparaît pas, à proprement parler, comme se destinant à une vie d'ascète ou de soufi au sens technique et pratique que les mystiques donnent à ce concept »

> " وقد يجوز القول، إلى أن يثبت العكس، أن الحاج مالك سي [...] لا يبدو، بالمعنى الدقيق للكلمة، أنه كان متجهاً إلى حياة الزهد أو التصوف بالمعنى التقني والعملي المعطى لهذا المفهوم عند المتصوفة" (Mbaye, 2003, p.573).

سيظهر من خلال تحليل هذه القصيدة، في حوار مع التراث الصوفي، لا سيما الكلاسيكي منه، أن "الحاج مالكا سي" ينتمي إلى مذهب التصوف الإسلامي العريق، كما تم إثباته في دراسة حديثة العهد (Niane, 2024). لنبدأ بمسألة الواحدية.

2. الواحدية

ولكي نتماشى مع المصطلحات الصوفية، ولا سيما الكلاسيكية منها، ينبغي أن نتحدث في تحليل القصيدة، عن الواحدية بدلاً من التوحيد. على الرغم من الخلط الذي قد يقع فيه بعض الباحثين، ثمة فرق بسيط بين المصطلحين. فعلى عكس علم الكلام، يميل التصوف الكلاسيكي إلى جعل التوحيد مرادفًا لعقيدة وحدة الوجود المعروفة لدى المتخصصين لوفرة البحوث الأكاديمية عنها (Ansari, 1988 ; 1999 ; Ventura, 2012). وفي هذا السياق فإن التوحيد هو الذي لم يعد ينطق به اللسان وحده، بل يتجلى في المشاهدة. ولتحقيق ذلك، كان على الصوفي أن ينتقل من علم التوحيد إلى حالة الفناء في التوحيد، من توحيد البرهان إلى توحيد العيان (Geoffroy, 2003, p.91). وهذا قريب من قول "أبي محمد الجريري" (ت.311هـ/923م): "ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد" (القشيري، 2009، ص.404) ومن قول "الشيخ أحمد التجاني" (ت.1230هـ/1815م) إن التوحيد "هو توحيده

[1] اعتبره ديفيد روبنسون في مقال شهير له عن الحاج مالك سي معلمًا في إفريقيا المستعمرة فقط، متجاهلًا بعده الصوفي. راجع المقال.Robinson, 2000

لنفسه بنفسه عن نفسه وهذا التوحيد لا سبيل له إلا بالفناء" (براده، 2011، 1009). وفي نفس المنوال يقول "سهل ابن عطاء الآدمي" (ت.309هـ/921م) إن "حقيقة التوحيد نسيان التوحيد، وهو أن يكون القائم به واحدا" (القشيري، 2009، ص.408). هذه التَّعريفات الكلاسيكية للتوحيد ليست ببعيدة عن بيت لـ"ـلشيخ الحاج مالك سي" في قصيدته المشهورة "زجر القلوب عن حب دار الخلوب وخفير السالكين طريق العارفين" الذي ينشد فيه:

ولـولا ســـكـون الـعـالـمـيـن لـغـيـره رأوه عـيـــانـــا والإلـــه قـــريـــب

(المرجع نفسه، ج.7، ص.17)

رغم أن "الحاج مالكا سي" كان من أتباع طريقة "الشيخ أحمد التجاني" الذي قدمنا تعريفه للتوحيد، ورغم أن شعره قد يكون له أحيانًا توجه صوفي / روحاني يضعه ضمن التعريف الكلاسيكي للمصطلح، إلا أن الشاعر يخاطب الله "في يا كاشف الداء" بطريقة تجعله أقرب إلى الواحدية منه إلى التوحيد.

فالواحدية، كما عرَّفها بعض كبار الصوفية، هو تجلي الله "بأسمائه وصفاته في غيره لغيره" (براده، 2011، ص.839). وهذا التجلي يكون بواسطة "الأسماء القائمة التي يطلبها الكون وهي التي لا وجود للكون بدونها" (المرجع نفسه، ص.1013). فبالواحدية والأسماء القائمة يتصف الله بصفات خالصة له وبها يقضي حاجات المنادين ويعاقب العاصين. فيكون للفقير مغنيا، للمريض شافيا، وللداعي مجيبا.

من هذا المنطلق يخاطب "الحاج مالك سي" الله في هذه القصيدة. ويعتبره الوحيد الذي يستطيع أن يشفيه من أسقامه ويذيقه من نور الروحانية وأسرارها، فهو الشافي والقادر على أن ينزل عليه فيض أنواره وأسراره القدسية:

يـا كـاشـــف الـداء والأســـوا وأضـــرار مـفـيـض أبـحـر أنـوار وأســـرار

(المرجع نفسه، ج.1، ص.70)

ومن وجهة نظر "الحاج مالك سي"، فإن شفاء الأسقام والذوق الروحاني يختص بها الله لأحبائه المختارين. وهذا ما يجعله يشير إلى "الأحبة" و"الأخيار" الذين تختص بهم نعم الله الذي وصفه الشاعر بأكرم من كلّ كريم، أرحم من كل رحيم وألطف من كل لطيف. فيقول بعد البيت السالف الذكر:

بـالاختيـار كمـا قـد شـــاء جـلّ إلى أحـبّـة كـان أخـيـار وأحـرار
يـا أكـرم الـكـرمـا يـا أرحـم الـرحـمـا يـا ألـطـف الـلـطـفـا يـا بـرد أحـرار
(المرجع نفسه)

ووفق ما يقوله "الحاج مالك سي" فإن الواحديّة تسمح بأن يحول الله بين الإنسان والنفس الأمّارة بالسوء. لذا، في مسعاه الروحاني، يطلب من الله ألا يتركه في مأمن من نفسه. وبنفس الطريقة التي يريد بها أن يكل مصيره الروحي إلى الله وحده، يطلب من ربّه ألا يسمح له بأن يشتكي إلى أحد غير الله. دون أن يصرح بذلك بشكل مباشر إذا، يتضرع "الحاج مالك سي" إلى الله من خلال اسميه "الهادي" و"الستار". فيقول في البيت التاسع عشر من يا كاشف الداء:

ولا تـكـلـنـي إلـى أمّـارتـي عـوجـا ولا شـــكـايـة أســـقـامـي لأغـيـار
(المرجع نفسه، ص.71)

3. النور المحمدي

إن التصوف، إضافة إلى تصوره لوحدانية الله، يبتعد عن علم الكلام والفقه في كيفية التعامل مع النبي وعلم النبوة. فالنبي في التصوف أكثر من مجرد رسول ينتمي إلى الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي إذ هو التجلي البشري لحقيقة ميتافيزيقية تتجاوز الزمان والمكان. وهذا ما يسميه المتصوفة بالحقيقة المحمدية، ويُطلق على أحد تجلياتها النور المحمدي. وأصل عقيدة النور المحمدي ورد في حديث رواه الإمام القسطلاني (ت.923هـ/1517م) وغيره أن أول ما خلق الله نور النبي وأن ذلك النور أصل كل الموجودات. يقول الإمام القسطلاني في *المواهب اللدنية بالمنح المحمدية*:

> "روى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء. قال: يا جابر، إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء، ولا أرض ولا شمس ولا قمر، ولا جني ولا إنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم -

وهي المعرفة بالله ـ ومن الثالث نور أنسهم، وهو التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله" (القسطلاني، 2004، ج.1، ص.71-72).

إضافة إلى جعل النور المحمدي مصدراً وأصلا للخلق، نجد القسطلاني يؤكد أن كل الكون ونعمه، والإنسان ونعمائه بما في ذلك نور الأبصار والأفئدة الذي يوصل إلى معرفة الله، إنما خلق من النور المحمدي. وفِي قصيدة أخرى لـ"ـلشيخ الحاج مالك سي" بعنوان "خلاص الذهب في سيرة خير العرب" نجد هذه الفكرة عن النور المحمدي (Kébé & Niane, 2023) في فصله الأول:

وإنـــه إذ أراد الله نشـــــأتـــنـــا أبـان مـن نـوره نـور الـنـبـي الـعـلـم
إنّ الـعـوالـم عـالـيـهـا وســـافـلـهـا أشـــعّـة طلعت من أفضـــل النســـم
(سي، 2021، ج.2، ص.12)

هذا النور الذي هو ينبوع التكوين (Lory, 2017, p.89) يجعل من النبي، في طبيعته الميتافيزيقية، الطريق الإلهي الإلزامي إلى التحقيق والرقي الروحي. وبدون هذا النور، من وجهة النظر الصوفية، لا يمكن لأحد أن يصل إلى النور الرباني المرتبط بالعرفان والفتح. إدراكًا منه لهذه الحقيقة، يُصلي "الحاج مالك سي" في البيت ما قبل الأخير من "يا كاشف الداء" على النبي الذي يعتبره القمر الذي نوره هو المصدر الوحيد للأنوار:

أزكـى صـــــلاة وتســـــليم علـى قمـر مـن نـوره نـيـل مـا نـلـنـا مـن أنـوار
(سي، 2021، ج.1، ص.72)

إن هذه الطريقة في التعامل مع النبي في حقيقته ونوره تقرب "الحاج مالكا سي" أكثر من المتصوفة الأوائل الذين كانوا يعتقدون دائماً، كما يذكرنا كلود عداس (Claude Addas, 2015, p.15)، أن مثلما "كانت الكعبة هي القبلة التي يولّي المؤمنون وجوههم نحوها عندما يؤدون الصلوات المكتوبة، فالنبي هو القبلة التي تتوجه إليها قلوب الراغبين في مشاهدة الواحد القهار، وهو النجم القطبي الذي لا ينقطع سطوعه حتى في جوف الليل"[1].

[1] « De même que la Ka‘ba est la qibla, la direction vers laquelle se tournent physiquement les fidèles lorsqu’ils accomplissent la prière rituelle, de même le Prophète est-il la qibla vers laquelle s’oriente le cœur de ceux qui désirent entrevoir l’Eternel, l’étoile

4. المقامات والأحوال الصوفية

تعتبر المقامات والأحوال جزءاً أصيلا من سمات المسلك الصوفي. وغالبًا ما تكون كلمات المتصوفة شاهدة على أحوالهم أو مقاماتهم. لذا فإن تحليل تصوف "الحاج مالك سي" لا يمكن أن يتم دون الأخذ بعين الاعتبار الأسلوب الذي يعبر به في كتاباته عن مختلف الأحوال والمقامات.

فالمقام، حسب تعريف "عبد الكريم بن هوازن القشيري" (ت.465هـ/1072م)، هو "ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب، مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاسات تكلف" (القشيري، 2009، ص.112). أما الحال، فهو عند الصوفية "معنى يرد على القلب، من غير تعمد منهم، ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم" (المرجع نفسه، 113). فالمقام "من نوع الأعمال، والحال من نوع العطاء" (الهوجوري، 2017، ص.210). الأول كسب والثاني وهب. ففي "يا كاشف الداء"، يكشف الحاج مالك سي عن خمس أحوال ومقامات روحية وهي التوبة، والخوف، والرجاء، والصبر، والفقر.

4.1. التوبة

إن أهمية التوبة في التصوف تكمن في كونها أول مقام يرتقي إليه السالك في مسعاه الرباني. فهو منزل التخلّي عن الخطايا ووساوس النفس الأمّارة بالسوء. فعلى هذا المنوال يقول الإمام أبو الحسن علي بن عثمان الهجوري (ت.465هـ/1072م) صاحب *الكشف المحجوب*: "اعلم أن التوبة هو أول مقام السالكين كما أن الطهارة هي أول خطوة لمن أراد أن يعبد الله" (المرجع نفسه، ص.325). ويرى صاحب *الرسالة القشيرية* أن "التوبة أول منزل من منازل السالكين. وأول مقام من مقامات الطالبين" (القشيري، 2009، ص.154). ولأهمية هذا المقام اعتبره "أبو طالب المكي" (ت.386هـ/996م) من الواجبات المرور عليه في السير إلى الله (Khalil, 2012, p.301).

مقام التوبة منكشف في بيتين من قصيدة "يا كاشف الداء" وعلى مستويين مختلفين. فعلى المستوى الأول يقول "الحاج مالك سي" إن مجرد مخاطبته الله، نظرا إلى طبيعته الإنسانية وعظمة الله، خطيئة يتوب منها. فالذنب الذي يتوب منه الشاعر داخل إذا في قاعدة حسنات الأبرار سيئات المقرّبين. يقول في البيت الحادي عشر:

---

polaire qui, dans la profondeur de la nuit, jamais ne cesse de briller ».

خـاطبـت ربـي خطـابـا لا يليق بنـا فـاغـفـر لـعـبـد مـن الآثـام حـيّـار
(سي، 2021، ج.1، ص.71)

أما في البيت الخامس عشر، فيطلب فيه الشاعر التواوني توبة كملت. وكمال التوبة، في الخطاب الصوفي، يقتضي تجاوز توبة العوام إلى توبة الخواص فخواص الخواص التي هي توبة العارفين. وها هو الشيخ "الحاج مالك" يرجو من ربه كمال التوبة:

هـب لـي إلـهـيَ ربـي تـوبـة كـمـلـت واســتر خطـايـاي ربي أي أســتـار
(المرجع نفسه)

4.2. الخوف والرجاء

بالإضافة إلى مقام التوبة، فإن "الحاج مالكا سي" يعطي مكانة هامة للمقامين أو الحالين المتضادين في المظهر وإن كانا مرتبطين ارتباطًا وثيقًا وهما الخوف والرجاء. في مقام الخوف، يعبر السالك عن جزعه وخوفه من الانحراف والسقوط في غضب الله. وبهذه الطريقة يستغرق في إدراك أخطائه وسردها قبل أن يلتمس الرجاء الإلهي. فعلامة الخوف إذا، "الحزن الدائم" كما أشار إليه الصوفي "شاه الكرماني" (ت.785هـ/1384م) حسب ما رواه لنا "القشيري" في رسالته (القشيري، 2009، ص.196). لكن هذا الحزن الدائم، عند الصوفي، رمز للتقوى كما أخبر به "بشر الحافي" (ت.227هـ/841م) صاحب العبارة الشهيرة "الخوف من الله مَلَك لا يسكن إلا في قلب متّق" (المرجع نفسه). والرجاء هو الذي يمكّن الصوفي من إيجاد التوازن وعدم الغرق في الخوف الدائم. فإذا كان الخوف هو الحزن، فإن الرجاء هو السعادة والانشراح. وللرجاء عدة تعريفات، أقتبس منها: "ثقة الجود من الكريم الودود. وقيل الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال. وقيل هو قرب القلب من ملاطفة الرب. وقيل سرور الفؤاد بحسن المعاد. وقيل هو النظر إلى سعة رحمة الله" (المرجع نفسه، ص.203).

في عدة أبيات من يا كاشف الداء، يتنقل الحاج مالك سي بين الخوف والرجاء حيث يعبّر أولاً عن حزنه وكربه، ثم يجد التوازن حين يذكر جود الله وكرمه، فيفسح الخوف المجال للرجاء. لنقرأ معاً الأبيات الممتدة من السادس إلى العاشر من القصيدة:

إنـي أصـــبـت بـداء لا طـبـيـب لـه ســوى الـذي كـل يوم شـــأنـه جـار
والـداء يـا رب أضـــنـانـي وأدنـفـني عـجـل إغـاثـتـنـا يـا خـالـق الـبـاري
إنـي وإن كـنـت أثـوابـي مـدنسـة بمـاء عفوك أرجو غســل أقـذاري
ورحمـة الله كـل الخلق قـد وســعـت مـن فـاجـر ومـطـيـع زاهـد بـاري

لـو كـان بـابـك لا يـأتـيـه ذو إثَـمٍ فـمـا دعـيـت غـفـورا كـل أوزار
(سي، 2021، ج.1، ص.71)

الأبيات من العشرين إلى الرابع والعشرين أيضا في نفس الموضوع:

إنـي أتـيـتـك بـالأدنـاس مـلـتـبسـا ولا يـدنّـس بـحـرَ الـعـفـو أكـداري
لو لم تكن رحمـة الرحمن قـد سـبقـت لمـت في هيبـة في تيـه أخطـاري
يـا ويـح نـفسـي لـو ويـحٌ يـنـقـذنـي يـوم ألاقـي ذنـوبـا مـثـل أحـجـار
إن قلـت (يـأيهـا الإنسـان)[1] عـاتِبَنـا فمـا أجيبـك ذاك اليـوم؟ يـا عـاري
فـاسـتر هنـاك كمـا في ذي معـائبنـا يـا الله يـا رب زحزحني عن النـار
(المرجع نفسه)

تُظهر الأبيات المذكورة للتو المقتبسة من "يا كاشف الداء" بشكل أكبر رسوخ "الحاج مالك سي" في التراث الصوفي الكلاسيكي فيما يتعلق بطريقة تأمل علاقته مع ربه. فكلماته عن الخوف تحاكي تمامًا كلمات صوفي القرون الوسطى "عبد الله بن خبيق الكوفي الأنطاكي" الذي كان يقول، حسب ما نقله لنا "محمد بن الحسين السلمي" (ت.412هـ/1022) في طبقاته، إن "أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك الفكرة في بقية عمرك" (السلمي، 1997، ص.123).

4.3. الصبر

يورد "القشيري" في رسالته كلامًا منسوبًا إلى "عليٍّ بن أبي طالب" (ت.40هـ/661م) مفاده أن "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد" (القشيري، 2009، ص.264). وهي من أصعب المقامات عند الصوفية، لدرجة أن "أبا علي الدقاق النيسابوري" (ت.405هـ/1014م) كان كثيرا ما يردد أن "الصبر كاسمه" (المرجع نفسه، ص.265) مرارة، ومشقة وشدّة في المعاناة. ولعل السبب في ذلك هو أن الصبر عند الصوفية ليس المطلوب عند الشدة فقط، بل ثمة لحظات في الرخاء يجب على الصوفي أن يتحلى فيها بالصبر. وفي هذا السياق كان "أبو محمد الجريري" كثيرا ما يؤكد أن الصبر عند أهل التصوف "لا يفرّق بين حال النعمة والمحنة" (المرجع نفسه، ص.267).

[1] أي (يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم). سورة الانفطار، الآية 6.

إن مقام الصبر، في العمل الشعري لـ"لحاج مالك سي"، على أربعة مستويات، يمكن قراءة ثلاثة منها في قصيدة "يا كاشف الداء". لنبدأ بالمستوى الرابع، وهو غير موجود في القصيدة. ويتعلّق الأمر بتحمّل شرور البشر. يوضح "الحاج مالك سي" أن البشر بطبيعتهم ظالمون. وبالتالي يطلب من الله أن يمنحه نعمة الصبر الذي يعتبره من سنن الأنبياء:

يـا رب هـب لي صـــبرا أســـتعين بـه على احتمـال أذى الأخلاق يـا صـــمـد
والـعفـو عـنـهـم إلـهـي مـع مصـــــابـرة وكـظـم غـيـظ كـمـا أحـببـت يـا فـرد
وَقـلَّ منـهـم مُـوفِي الـعـهـد مُـحْسـنُـه لكن عواقـب صـــبر دونهـا الشـــهـد
حـمـل الأذى ســـنّـة لـلأنـبـيـاء مـعـا كن حـاملا كـل خير صـــاحبي تجـد
(سي، 2021، ج.7، ص.29)

ثمة مستوى ثانٍ في شعر "الحاج مالك سي"، وهو الصَّبْرُ عن شهوات النفس، وهذا المستوى يكون بممارسة الزهد لتحرير النفس من سجن الهوى وتحقيق الكمال الروحاني. يتناول "الحاج مالك سي" هذا الصنف من الصبر في نفس البيت الذي يعالج المستوى الثالث، وهو الصبر على أقدار الله وبلائه. فيقول في البيت السادس عشر من "يا كاشف الداء":

والصـــبر عن شـــهوات النفس ثمّ على مصـــــائـب ربّـنـا فـي هـذه الـدار
(المرجع نفسه، ج.1، ص.71)

أما المستوى الرابع في هذا المقام فيتعلق بالصبر على ما أنعم الله به على الإنسان. فَبينما كانت المرتبة الثالثة مرتبطة بالصبر على البلاء، يتعلق الأمر هنا بالإعراض عن ملذات الدنيا ونعمها مع كونها مباحة. يقول "الحاج مالك" في البيت السابع عشر:

والصـــبر في نعم لم أحص عـدّتهـا والشـــكر يا ربّ أعياني كإحصـــاري
(المرجع نفسه)

4.4. الفقر

الفقر هو المقام الصوفي الأخير الذي سنتناوله في هذا البحث. ويحتل مكانة لا يستهان بها في التصوف عامة وفي الطريقة التجانية خاصة. وفي هذا المعنى، يعلن الشيخ "أحمد التجاني"، حسب ما ورد في كتاب *جواهر المعاني* أن قلب الإنسان محاط بسبع جواهر بفتحها تتحقق المعرفة الحقيقية وينال الفتح الروحاني. والجواهر المذكورة هي: الذكر، والشوق، والمحبة، والسرّ، والروح، والمعرفة،

والفقر لله تعالى (براده، 2011، ص.997-999). وَيعتبر الفقر بأعلى الجواهر، وقد عرّفه الشيخ أحمد التجاني بقوله:

> "الجوهرة السابعة، وهي جوهرة الفقر لله تعالى. إذا انفتحت للعبد يشهد افتقاره إلى الله تعالى واضطراره إليه في كل نفس من أنفاسه. فلا يزعجه عن هذا التمكين ورود كلّ خطب من أضداد فقره. ومن تمكّن من هذه الجوهرة صار أغنى الخلق بالله عن كل شيء بحيث ألا يبالي بجميع الخلق أحبوه أم أبغضوه أم أقبلوا عليه أم أدبروا عنه لكمال غناه بالله تعالى. فمن تمكّن من هذه الجوهرة أمِن من السلب من حضرة الحق سبحانه وتعالى" (المرجع نفسه، ص.999).

هذا التعريف للفقر عند "الشيخ أحمد التجاني" مثير للاهتمام من حيث إنه يفتح آفاقاً من المنظور الروحي غير المتصور. فالفقر هنا يصبح إيجابيًا ويكون الفقر في الله مرادفًا للغنى الروحي. وهذا ما يبرر رؤية "رينيه غينون" (Guénon René) في جعله الفقر مرادفاً لمقام الفناء، الذي يترجم فكرة فناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية. وهذا الفناء بالنسبة إليه شرط ضروري لبلوغ "المقام القدسي" (Guénon, 1973, p.48). وهذا يوضح معنى مصطلح "الفقراء" الذي أصبح يُستخدم كمرادف لكلمة "الصوفية" في الكتب الكلاسيكية عن التصوف. وفي هذا السياق يقول صاحب الرسالة القشيرية "والفقراء صفوة الله عز وجل من عباده، وموضع أسراره بين خلقه، بهم يصون الحقُّ الخلق، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق" (القشيري، 2009، ص.369).

والفقير في "يا كاشف الداء" لـ"لحاج مالك سي" يحمل نفس المعنى في التصوف الكلاسيكي، مما يجعله مرادفًا للغنى إذ لا يحتاج الفقير عند "الحاج المالك" إلا إلى نعمة الله. وفي هذا المعنى يقارن في البيت الثالث عشر بين النعمة الإلهية والصدقات المخصصة للفقراء الذين يعتبر نفسه واحدا منهم. وفي هذا السعي وراء النعمة الإلهية يقول في البيت الرابع عشر إن كل ما يحتاجه هو الله وحده. ويختفي كل شيء آخر في نظر الشاعر إلا الله الذي يقول إنه حاجته القصوى:

وفي كتابك ربي (إنما الصدقا ت) رب للفقرا من دون إنكار
إني فقير ومسكين ومنكسر مَا احتاجَ غَيرَك في تيسير أوطاري
(المرجع نفسه، ج.1، ص.71)

الخاتمة

لم يعد هناك أي شك في أن أعمال "الحاج مالك سي" تنتمي إلى التراث الصوفي الأصيل، على عكس ما قد توحي به العديد من الدراسات. رغم أنه من الصحيح كون استراتيجيته في مقاومة الاستعمار قائمة على التعليم وأن كتبه النثرية، مثل "كفاية الراغبين" و"إفهام المنكر الجاني"، كانت تهدف إلى إصلاح المجتمع (Seck, 2024) إضافة إلى الكتابة عن الطريقة التجانية، إلا أن أعماله الشعرية تكشف عن جذور "الحاج مالك سي" الصوفية.

وتعد قصيدة "يا كاشف الداء" التي تمت دراستها في هذه المقالة خير مثال على توجهه الصوفي. فبالإضافة إلى الرؤية الصوفية لوحدانية الله التي تجعله أقرب إلى الواحدية منه إلى التوحيد وفق المفهوم الميتافيزيقي، فإن القصيدة تعالج موضوع النور المحمدي كطاقة خلاقة ومصدر للنعم الإلهية. إذًا ف"محمّد" المتصوفة من أمثال "الحاج مالك" يختلف قليلًا عن "محمد" أهل الظاهر. وهذه الحقيقة تلحقه إلى قائمة مؤلفين آخرين تتراوح بين "أبي يزيد البسطامي" (ت.261هـ/876) و"الشيخ أحمد التجاني" وتشمل آخرين من أمثال "محيي الدين ابن العربي" (ت.638هـ/1240م) و"الشيخ أحمد العلاوي" (ت.1351هـ/1934م) الذين تناولوا شخصية النبي "محمد" في حقيقته الأسمى التي تتجاوز طبيعته البشرية المحضة.

هذا بالإضافة إلى مختلف المقامات والأحوال الروحية التي يشهد لها "الحاج مالك سي" في "يا كاشف الداء"، مما يجعلني أختلف مع أحد أبرز الباحثين في حياته وأعماله الذي أشار، كما سبق ذكره، إلى أن " الحاج مالك سي" [...] لا يبدو، بالمعنى الدقيق للكلمة، أنه كان متجهاً إلى حياة الزهد أو التصوف بالمعنى التقني والعملي المعطى لهذا المفهوم عند المتصوفة" (Mbaye, 2003, 573). ومن الأكيد أن المزيد من البحث في قصائد أخرى لـ"لحاج مالك" سي سوف يتيح لنا معرفة تفاصيل أكثر عن تصوف شاعرنا.

قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية

- برّاده، علي حرازم ابن العربي، 2011، *جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس التجاني*، بيروت، البراق.

- سي، الحاج مالك، 2021، *مجمع الكنوز العلمية والمعادن العرفانية من ديوان العلامة الشيخ الحاج مالك سه عليه رضى المالك*، جمع وتحقيق اللجنة العلمية الثقافة التابعة للحضرة المالكية، الرباط، دار أبي رقراق.
- القسطلاني، أحمد بن محمد، 2004، *المواهب اللدنية بالمنح المحمدية*، بيروت، المكتب الإسلامي.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن، 2009، *الرسالة القشيرية في علم التصوف*، القاهرة، دار المقطم.
- الهجوري، علي بن عثمان، 2007، *كشف المحجوب*، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.

المراجع باللغات غير العربية

- Addas Claude, 2015, *La Maison muhammadienne : aperçus de la dévotion au Prophète en mystique musulmane,* Paris, Gallimard.
- Ansari Abdul Haq, 1999, « Ibn ’Arabī: The Doctrine of Waḥdat Al-Wujūd », *Islamic Studies* 38, no 2, pp.149-92.
- Ansari Abdul Haq, 1988, « Shah waliy Allah Attempts to Revise “waḥdat al-wujūd” », *Arabica* 35, no 2, pp.197-213.
- Bousbina Said, 1997, « Al-Hajj Malik Sy. Sa chaîne spirituelle dans la Tijaniyya et sa position à l’égard de la présence française au Sénégal », in, David Robinson et Jean-Louis Triaud (éds), *Le temps des marabouts : Itinéraires et stratégies islamiques en Afrique occidentale française v. 1880-1960,* Paris, Karthala, pp.181-198.
- Fall Abdou Salam, 2024, « Seydi El Hadji Malick Sy : Origines multipolaires et identité universelle », In Abdou Salam Fall & Abdoul Azize Kébé (éds.), *Seydi El Hadji Malick Sy : Érudit et soufi africain du début du 20e siècle,* Dakar, Presses universitaires de Dakar, pp.29-105.
- Geoffoy Éric, 2003, *Le soufisme : voie intérieure de l’islam,* Paris, Fayard.
- Geoffroy Éric, 2014, *Un éblouissement sans fin : la poésie dans le Soufisme*, Paris, Seuil.
- Guénon René, 1973, *Aperçus sur l’ésotérisme islamique et le Taoïsme*, Paris, Gallimard.

- Kébé Abdoul Azize & Niane Seydi Diamil, 2023, *El Hadji Malick Sy et la lumière muhammadienne. Mythologie, prophétologie et cosmogonie à la lecture de* Ḫilāṣ al-ḏahab, Dakar, Al Amine éditions.
- Khalil Atif, 2012, « Tawba in the Sufi Psychology of Abū Ṭālib al-Makkī (d. 996) », *Journal of Islamic Studies* 23, nº 3, pp.294-324.
- Lory Pierre, 2017, « Le modèle prophétique chez Hallâj », *Archives de sciences sociales des religions* 62, nº 178, pp.89-100.
- Marone Ibrahima, 1970, « Le Tidjanisme au Sénégal », *Bulletin de l'IFAN,* série B, t. XXXII, n°1, pp.136-215.
- Mbaye El Hadji Ravane, 2003, *Le grand savant El Hadji Malick Sy : pensée et action,* Beyrouth, Albouraq.
- Niane Seydi Diamil, 2018*, La voie d'intercession du Prophète dans la poésie d'Elhadji Malick Sy,* Paris, L'Harmattan(rééd.).
- Niane Seydi Diamil, « Le soufisme dans l'œuvre de Mawdo », In Abdou Salam Fall & Abdoul Azize Kébé (éds.), *Seydi El Hadji Malick Sy : Érudit et soufi africain du début du 20e siècle,* Dakar, Presses universitaires de Dakar, pp.165-190.
- Robinson Davide, 2000, « Malick Sy : Teacher in the New Colonial Order », in *La Tjâniya : une confrérie musulmane à la conquête de l'Afrique,* Jean-luis Triaud et David Robinson (dir.) Karthala, pp.201-218.
- Seck Mamarame, 2024, « Seydi El Hadji Malick Sy, le réformateur : Exhortation et discours sur la société », In Abdou Salam Fall & Abdoul Azize Kébé (éds.), *Seydi El Hadji Malick Sy : Érudit et soufi africain du début du 20e siècle,* Dakar, Presses universitaires de Dakar, pp.387-409.
- Ventura Alberto, 2012, « A Letter of Šayḫ Aḥmad Sirhindī in Defense of the "Waḥdat Al-Wuǧūd" », *Oriente Moderno* 92, no 2, pp.509-17.